

قيم الإعلام والخطاب في زمن الحداثة الفائقة

أ.نصر الدين بن سراي

جامعة ملين دباغين سطيف

الملخص:

لاشك أن الظاهرة الإعلامية لها راهنيتها في المجال العالمي اليوم، فالوجود الإنساني لا يمكنه أن يستغني عن حضور الإعلام الفائق بشئى أنواع صورته، هذا ما يدفعنا للوقوف على هذه الظاهرة لمساءلتها ومحاولة فهمها، قصد الكشف عن الصور المضمرة وراء تشكل الخطابات الإعلامية في زمن الحداثة الفائقة، التي تميّزت بتخليها عن القيمة وتعقيل الخطاب الإعلامي. هذا ما استرعى انتباهنا لخطورة تلك الإستراتيجية التي قام بها فعل التحديث خاصة على مجال التربية القيمة.

الكلمات المفتاحية: القيمة، الخطاب، الحداثة الفائقة، تعقيل، الكلمة

Summary:

Undoubtedly the media phenomenon has her effect in Our world today ,the human presence cannot dispense of the presence of all media with it's own different, which push us to stop in this kind of phenomenon to understand it ,to detect and find the unknown question behind the forms of media discourses in the modernity tense ,which was special in leaving of the value of these discourses. wich made us attention to the danger of this strategy wich done by acts of modernity special in valorem education field

Key words ; value ,discourse ,top modernity , , rationalization ,word

مقدمت:

لا يمكن فصل أي ممارسة إعلامية عن جانبها الفلسفي، فعالم الأفكار هو المحضن الذي تنشأ فيه جميع التصورات التي تريد أن تفهم العالم وتأوله وفق رؤيتها. ومن ذلك الظاهرة الإعلامية التي تتميز بحضورها الأثري في العالم اليوم. إذ تعد هذه الظاهرة مهمة وخطيرة في آن واحد، فهي سلاح ذو حدين كما يقال في تشكل صورة الوعي الإنساني في العالم اليوم خاصة، بعد أن أضحى الإنسان مجرد فرد لا ينفك توجده في العالم الأزرق.

ولقد لعبت الإعلام الفائق دورا مهما في زمن الحداثة والحداثة البعيدة. تلك الممارسة الإعلامية التي ترتبط بإستراتيجية تعقيل القيم بفصلها عن الخطاب، حيث كانت هذه الأخير هي مح والمداخلة التي نسعى من خلالها لبيان حدود الصريحة والمضمرة للإعلام في العالم اليوم، من خلال الإجابة على الأسئلة الآتية :

وكيف عملت الحداثة الفائقة على تقويض معنى الكلمة والخطاب كيف حاولت الحداثة الفائقة فصل القيم عن الإعلام ؟ وماهي معايير التي استخدمتها لتكريس تلك الرؤية ؟ وما مظاهر ذلك على الصعيد التربوي المحلي والثقافي والوعي العالمي ؟ كل ذلك من خلال بعض مدونات الفكري الغربي والعربي مثل جيل ليبوفتسكي وروجيه غارودي وعبدالرحمان عزي وطه عبد الرحمان.

1 . معنى تعقيل القيم وفصلها عن الخطاب:

إن ما يحدث في العالم من أحداث سياسية واقتصادية وعلمية، تكاد تكون حاضرة أمامنا في مشاهدنا ومسامعنا عبر الإعلام الذي أصبح له حضور أثري في المجتمع الإنساني بالكامل، فقد أضحى العالم اليوم قرية لا مجال فيها للإنزواء الاجتماعي. فإذا تحدثنا عن الخطاب الإعلامي وعلاقته بالحداثة الفائقة، فيمكن القول إن الحداثة التي أفرزت لنا فكر التقدم والأنوار والتكنولوجيا، قد ساهم الإعلام - كمعطى حداثي - للتبشير بها كفكر حديث عبر قنواته وأساليبه المختلفة. هذا الواقع الإعلامي الفائق الذي ظهر كمعطى وجودي، تهيمن وتتحكم فيه وسائل الإعلام، التي تعتمد على التقنية والعصرية التي ما فتئت أن تخط للحياة وفق نموذج فائق بعيد عن الواقع المعيش؛ إنها حياة تقوم وسائل الإعلام بقولبتها وتوجيهها وفق ما يريده ممتلكوها.

إن المسعى الذي نريد بيانه هنا هو مسألة انفصال الإعلام عن القيم، حيث كانت هذه السمة البارزة للعصور الحديثة " إذ تحول الإنسان منذ بداية العصور الحديثة من عابد للإله يمدد بمدد التواصل الروحاني

والمقصدية الأخلاقية إل عابد لذاته ولمصالحه، وهوما تعنيه الحرية بوصفها قيمة أولى تتراتب بعدها القيم الأخلاقية... فمع التهافت المتواصل للمرجعيات تنبلج أمام الفاعل روح التحرر المتواصل لتكون الحرية هي قائدة القيم، ومن ثم التشريع للذات في انفصال كلي عن أشكال الأمر، إنه عصر إرادة القوة حيث يخرج الفرد من ربة كل الإلتزامات؛ إلزام الكنيسة والمجتمع وكل سلطة خارجية قد تمكن السبيل لوسائل الإغتراب فقد انتهت المثل العليا وغاب كل إيمان وأصبح مطلب مابعد الحداثة التمتع بالوجود الجميل⁽¹⁾.

فالحداثة الفاتكة وحضورها الأثيري البارز في المجتمعات الحداثية، ظاهرة تستدعي الوقوف عندها لمساءلتها، ذلك أنها أيضا متلبسة باستقلال القيم وانفصالها فقد " تجاوزت وسائل الإعلام المعاصر كل الحواجز الموضوعية لحماية الدول ذات الإيديولوجية والمجتمعات المغلقة، مثل الصين وكوريا الشمالية والمملكة العربية السعودية، من تأثيرات الأنباء وأيضا الثقافات "⁽²⁾.

فقد أضحت وسائل الإعلام تلعب دورا كبيرا، في بناء وعينا وتشكيل منظوماتنا الثقافية، أضف إلى ذلك المهمة الخطيرة التي تلعبها في رسم خريطة البنية الرؤيوية إلى العالم، من خلال الثقافة الإعلامية التي نعيش تحت تأثير إشعاعها الثقافي الإعلامي، إنها " من المؤسسات الأكثر أهمية في المجتمعات الحديثة تلك التي تشمل التعليم، والأسرة، والدين، والسياسة، وذات الأهمية الخاصة بالنسبة إلينا، تلك التي تمثل وسائل الإعلام؛ تعمل على الترفيه عنا، وتسهم في التنشئة الاجتماعية، وتعلمنا، وتثقفنا، وهي تبيعنا الأشياء وتبيعنا كجمهور للمعلنين، وتغرس في نفوسنا بعض المبادئ، إلى جانب الكثير من الأشياء الأخرى، وتساعد في تشكيل هويتنا ومواقفنا تجاه الأقليات العرقية والإثنية، ومواقفنا بشأن التوجه الجنسي "⁽³⁾. فنحن نعيش في واقع إعلامي " تزداد فيه المعلومات أكثر فأكثر، بينما يصبح فيه المعنى أقل فأقل... ولكنه لا يتمكن من تعويض الخسارة الحادة في الدلالة في جميع الميادين "⁽⁴⁾.

فقد أصبحت الظاهرة الإعلامية تتحكم في الإنسان المعاصر وأسلوب حياته؛ تحدد رغباته ومواقفه كما أنها تساهم أيضا في تغيير حتى قناعاته الإيمانية فقد " قيل الكثير عن هذه الظاهرة، والظواهر غير الكريمة الأخرى للإعلام والواقع، وأن مستواه لا يترك أي إنسان على طبيعته، لأن المرء ينح وناحية أن يصبح هوما يراه

(1) بوحناش نورة، الأخلاق والرهانات الإنسانية، (دط)، المغرب، أفريقيا الشرق، 2013، ص 9، 10

(2) مراد هوفمان، خواء الذات والألمعة للمستعمرة، تعريب عادل المعلم، نشأت جعفر، ط1، القاهرة مصر، مكتبة الشروق، 2002، ص 75

(3) آثر أسا بيرغر، وسائل الإعلام والمجتمع، وجهة نظر نقدية، ترجمة صالح خليل أب وإصبع، سلسلة عالم المعرفة 386، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مارس 2012، ص 23

(4) جون بودريار، المصطنع والإصطناع، ترجمة جوزيف عبد الله، ط 1، بيروت لبنان، المنظمة العربية للترجمة، 2008، ص 147

فيما يسمى بذكاء التحليل النفسي المعكوس، لا شك أن الإعلام بكامله يستهدف نوعية الناس التي يتناسب معها، أخبرني عن قنواتك الإعلامية، وسوف أخبرك من أنت⁽¹⁾.

يمكن رصد طائفة من مظاهر الانفصال القيمي للظاهرة الإعلامية، وصياغتها وفق الطرح التالي:

أ- معنى العالم في زمن الإعلام:

السؤال الذي يمكن أن نوجهه هنا: ماهي الحقيقة التي يقدمها الإعلام؟ ما الأهداف التي ترمي إليها وسائل الإعلام؟ وما صيغة العالم التي يريد الإعلام أن يشكلها لنا حتى ننصاع لها؟

المتتبع لوسائل الإعلام يجد أن المهيمن على الساحة الإعلامية هو الواقع الإعلاني والإشعاري وتوجيه الإنسان إلى التملك والتشيؤ، ودعوته إلى سوق الإستثمار وتحقيق الأرباح، واقع تحركه رغبات إقتصاد السوق وإنتاج مزيد من الأسواق، حيث تشكل فيه الصور الرمزية والإيقونات دلالاتها المضمرة؛ المحركة لرغبات الإنسان. إنه الطابع التسليعي للعالم حيث " تغول قطاع صناعات اللذة، وهيمنت على الحياة الخاصة التي تم استيعابها في رقعة الحياة العامة، وتزايد تأثير وسائل الإعلام ومنظومات المعلومات التي تحاصر الإنسان بالصور الأيقونية الجذابة المتغيرة... واهتز الإيمان بكل شيء"⁽²⁾. فلائمة إلا قيم الإستهلاك، وأصبح إشباع اللذة هو أقصى غايات الإنسان، حيث تقوم وسائل الإعلام " بإقتحام أحلام الإنسان وترشيده من الداخل والخارج، فيظهر الإنسان ذ والبعد الواحد الذي لا يمكنه التحكم في رغباته الحسية، والذي تتركز أحلامه في تحقيق انتصار جنسي أو فوز النادي الذي ينتمي إليه فوزا ساحقا ماحقا... وتتزايد سرعة الحياة العامة وإيقاعها خاصة بعد استخدام التلفزيون المحمول... ويتغلغل السوق والتعاقد والتبادل في كل مجالات الحياة"⁽³⁾.

حتى العالم كله يختزل في الصورة، والصورة قد يطالها التغيير؛ لتختزل في مجرد منبه أو علامة أو مثير يقوم بفعل التهيج. وفي هذا الصدد يبين لنا (ريجيس دوبري) هذا الأسلوب فيقول: " إن التنقيص من

⁽¹⁾ هوفمان مراد، خواء الذات والألمغة المستعمرة، مرجع سابق، ص 74

⁽²⁾ للمسيحي عبد الوهاب، فتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، ط1، دمشق دار الفكر، 2003، ص 53، 54

⁽³⁾ المرجع نفسه، ص 59، 60

* وقد توسع طه عبد الرحمان في تفصيل ذلك وبيان زيف الممارسات الإعلامية، حيث يقول: " فكما أن الشاشة، وهي تدفع بصورها إلى الجمهور دفعا، تُبدي قوتها وهيمنتها فكذلك المتفرج، وه ويندفع في التعامل مع غيره اندفاعا، يبدي قدرته وتسلطه. وكما أن الشاشة تقر أنها مالكة للحقيقة، قاصدة انتزاع تسليم الجمهور بما تعرضه من الصور، فكذلك المتفرج يقرر أن رأيه صواب وعمله صلاح، قاصدا انتزاع اعتراف الآخرين بشخصه، وكما أن الشاشة تمارس إينائها للجمهور في إطار القوانين الإعلامية والقيود التي تضبط العمل الصحافي، فكذلك المتفرج يمارس إيناءه للآخر في إطار القوانين الإجتماعية والقواعد التي تضبط التعامل بين الأشخاص. وأخيرا كما أن الشاشة، على استبدادها واعتدائها، تحرص على المحافظة على جمهورها، بل على الإستزادة من أفرادها،

الصور، لتغد ومجرد علامات، وقد تخلله الانتقال من التخفيض (أي ذلك الذي يمتدح خصائص شيء ما) إلى الإشهار (أي امتداح رغبات الشخص) وهوتنقيض صاحب نقل الأولويات المتصلة بالنظام الإعلامي من الإعلام إلى التواصل ومن الخبر إلى الإرسالية، وتلك المتعلقة بالنظام السياسي من الدولة إلى المجتمع المدني، وتلك المتعلقة بالنظام الاقتصادي من مجتمع الإنتاج إلى مجتمع الخدمات والأولويات الخاصة بنظام الترفيه، من ثقافة التنبية، من مدرسة وكتاب وجريدة إلى ثقافة الترفيه، أما الأولويات الخاصة بالنظام النفسي فقد انتقلت من سيادة مبدأ الواقع إلى هيمنة اللذة⁽¹⁾.

يحاول الإعلام من خلال أشكاله المتنوعة أن يقدم صورة إلى العالم، ابتداء من السرد القصصي-الذي يتناول فيه قصة الكون: البداية والنهاية، وتصوير القصص والحكايات، حيث لا يزال هذا البعد مطلوباً لدى كل فرد. بمجرد مشاهدتنا لعرض سينمائي فإننا نعلم مسبقاً أن قصة ستروى لنا وتصور ينتقل إلينا عبر مؤثراته التقنية البارعة، وكما يقول جيل ليبوفيتسكي: العالم باعتباره رؤياً سينمائية فإذا "كانت السينما تملأ وظيفة سردية تعبيرية حلمية كبرى، فذلك ليس بعدها الوحيد، فهي تملك وظيفة أخرى لم يتم إبرازها بشكل كاف، رغم أنها حاسمة، وتفتح منظوراً آخر، السينما هي ما يبني إدراكاً للعالم، ليس فقط وفقاً للدور الكلاسيكي الممنوح للفن... ما تجعلنا السينما نراه، ليس عالماً آخر فحسب، عالم الحلم واللا واقع، ولكن عالماً نفسه وقد أصبح مزيجاً من الواقع والسينما... إنها تنتج حلماً وواقعاً، واقع أعادت روح السينما تشكيله، لكنه ليس حقيقياً مطلقاً، فإذا كانت تسمح بالهرب، فهي تدع وأيضاً إلى إعادة رسم خطوط العالم الخارجية، وهي تقدم رؤياً للعالم: ما نسميه رؤياً السينما"⁽²⁾.

وكأن الواقع الذي نحيا فيه، ما هو إلا إنتاج لوسائل الإعلام من خلال السينما التي تحاول المنظومات المتحركة فيها، أن تصنع العالم وفق ما تراه وتهندسه على حساب ثقافتنا، لن نكون متحيزين إذا قلنا إن

كأنها تسعى إلى توسيع نطاق إيذائها، فذلك المتفرج، على تسلطه وعدوانه، يحرص على المحافظة على غيره، كأنه يسعى إلى مزيد إيلايه "طه عبد الرحمان، دين الحياة، من الفقه الائتماري إلى الفقه الائتماني، (2) التحديات الأخلاقية لثورة الإعلام والاتصال، ط1، بيروت لبنان، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، 2017، ص 62، 63

⁽¹⁾ ريجيس دوبري، حياة الصورة وموتها، ترجمة فريد الزاهي، ط1، المغرب، إفريقيا الشرق، 2007، ص 197
وهذه الإستراتيجية التي يقوم عليها الإعلام المعاصر ما يسمها طه عبد الرحمان بتلفزة الواقع، "لا أحد تلفزة يمكن أن ينكر أن انعطافاً جديداً حدث في التفرج مع ظهور ما سُمي ب (تلفزة الواقع)؛ وقد نُطلق على هذا المنعطف الجديد في التفرج اسم (التفرج المباشر)؛ وتتولى (تلفزة الواقع) بث برامج مخصصة تحدت ملامحها الأولى في مطلع الثمانينيات من القرن الماضي، وممرت بأطوار ثلاثة أساسية: طور (إعادة بناء الواقع) وطور (ملاحظة الواقع) وطور (توليد الواقع)" طه عبد الرحمان، دين الحياة، مرجع سابق، ص 45، 46.

⁽²⁾ جيل ليبوفيتسكي، جان سيرو، شاشة العالم، ترجمة رواية صادق ط1، مصر، المشروع القومي للترجمة، 2012، ص 322

الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية هي إنتاج الإعلام السينمائي العالمي فلنتصور " السينما - من هذا المنطلق- ما قاله (أوسكار وايلد) على نح واستفزازي مستندا في عام 1889 على الفنون السائدة وقتئذ، الأدب والتصوير الزيتي: "الحياة تقلد الفن، أكثر مما يقلد الفن الطبيعة بكثير" ⁽¹⁾، حيث إنه يشير إلى نظرية تشبه نظرية أفلاطون في المحاكاة، وهي نظرية لها أثرها في العالم الفني والإعلامي.

ب- الإعلام الفائق وإضمحلال القيم الروحانية:

إن سيطرة التسلط التقني الإعلامي من خلال برامجه التلفزيونية المتنوعة، له آثاره الوخيمة على النظام الأخلاقي، لاسيما في المجتمعات التي يخب وصوت الضمير فيها، فينعكس دور الإعلام بالسلب، فتضمحل قيم التعارف والتراحم وتتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية؛ فمعظم هذه الوسائل تركز لما تعنيه الحرية والفردانية، المبادئ النازمة لجوهر الحداثة، حيث يتعاطى معنى الحرية في أبعاد الجنس الحر وصور التعري والجريمة والغزو والاحتلال، فتختل منظومة القيم. ويمكن رصد أنواع عدة لتلك البرامج كما صرح بذلك (هوفمان) التي تعبر على اللا أخلاقية والسفاهة البنيوية مثل "العالم الحقيقي (THE REAL WORLD)، والأخ الكبير (BIG BROTHER)، وتلفزيون التجسس (SPY TV)، وجزيرة الإغراء (ISLAND TEMPTATION)" ⁽²⁾.

هذه الحصص وما تقدمه من برامج تخدش الحياء* والهبوط بالمشاهد إلى مستوى الحيوانية، وتؤز الغرائز وتدفع بالمشاهد إلى اللاإنسانية؛ من تجسس على الآخرين وممارسات جنسية والدخول في علاقات غير قانونية، كل هذه القيم المنحطة كانت قد ضمنت في تلايب وسائل الإعلام المتحركة في المشاهد وتسعى إلى صناعته آلة خالية من معنى.

لقد ساهم الإعلام المعاصر في تغيير طبيعة الأشياء حتى زحف إلى القيم الإنسانية وسعى إلى تغييرها، فالممارسة الإعلامية ساهمت في إماتة القيم الروحانية التي تمد الإنسان بالتواصل الروحاني والقدرة على

⁽¹⁾ Oscar Wilde, Le Déclin du mensonge (1889), Paris, allia, 1997, p71

⁽²⁾ جيل لبيوفيتسكي، جان سيرو، شاشة العالم، مرجع سابق، ص 75

* وتعتبر مجاوزة الحياء جزءا رئيسا من في الظاهر الإعلامية المعاصرة، " إن المتكشف، لما كان يتكشف لغيره كما يتكشف لذاته، فقد تلبس بالصورتين الانسلاخيتين معا؛ فإذا تكشف لغيره، أشبه (الإنسان للتبهم)؛ إذ البهيمية لاتستر سواتها عن الناظرين، وه وكذلك... إن تأتي أفعاله الظاهرة على صورة أفعال الحيوان؛ وربما كان إلى ظاهرة بهيمة بيعنها أقرب منه إلى ظاهرة بهيمة غيرها؛ أما إذا تكشف لذاته فإنه يشبه الإنسان المتمسح، إذ تكون نفسه قد مسخت على نفس حيوان؛ ولعل نفسه تكون إلى نفس بهيمة بعينها أقرب منها إلى نفس بهيمة سواها؛ ولما يتمحض للمتكشف أحد التكشفين المذكورين، إن غالبا ما يتكشف لغيره بقصد التكشف لنفسه؛ لذلك، كان يتقلب بين التسفلين: (التبهم) و(التمسح) " طه عبد الرحمان، دين الحياء، مرجع سابق، ص 314

إقامة فعل التمايز بين الحسن والقبح في الأشياء والأفعال " فليس المقصود هونم والإنسان الروحي، وإنما استهلاك متجدد باستمرار للمنتجات يتيح رضا فوريا ولا يتطلب أي تدريب، وأي علامات إرشادية ثقافية محددة وعامة، فالفن سينما هو -أولا وقبل كل شيء - فن استهلاك الجمهور فليس ثمة طموح آخر سوى الترفيه، والمتعة، والسماح بهروب سهل يدركه الجميع ⁽¹⁾.

القيم الإعلامية المعاصرة لا تستند إلى أساس ثابت يمكن لها أن تستمد منه مرجعيتها القيمة، بل رؤيتها إلى العالم التي تعتمد عليها هي رؤية مادية صرفة، لقد استخدمت وسائل بديلة للقيم، بعد فعل التفرغ الروحي للعالم الجواني للإنسان؛ أضحت تعطي بدائل أخرى للظفر بالحياة السعيدة، والتنفيس على الإنسان فيما يعانيه من قلق وجداني وشعور اغترابي؛ " ومن أهم تبديلات الحداثة المنفصلة عن القيمة (التقاليع) أي الموضة التي تعني الرغبة الدائمة في تغيير الزي مرتين على الأقل كل عام، فهي تجسد رؤية العالم كمادة متحركة، وأن الهدف من الوجود الإنساني هو الاستهلاك المستمر، ويلاحظ أن كثيرا من مصممي الأزياء من الشذوذ جنسيا... ودلالة كل هذا هو انفصال هذه الصناعة عن المعايير الأخلاقية والدينية والإنسانية ⁽²⁾.

ج- الحداثة الفائقة والأزمات الاقتصادية:

إن الطريقة المتبعة في الاقتصاد اليوم؛ لا تقوم على العمل لتحصيل الربح بل تركز طرق أخرى جديدة تسعى للربح والثراء، ويمكن أن نعتبر هذه الوسائل الجديدة ليست شريفة ولا أخلاقية في الميزان القيم الاقتصادية -التي تمجد العمل بالنسبة للإنسان- فقد أصبح " نمط الإنتاج الجديد القائم على خلق كائنات أثرية افتراضية هو مصدر من مصادر الأزمة في مجال الاقتصاد، كما يتجلى ذلك في التجارة الإلكترونية القائمة على نقل المعلومات والرموز عبر الفضاءات السبرانية. والتجارة في الأساس قطاع ملحق بالإنتاج الزراعي، وعندما يتضخم أو يطفئ القطاع التجاري على حساب سواه، فمعنى ذلك نشوء ثروات وأرباح من غير ما جهد أو عمل، فكيف إذا كان الأمر يتعدى التجارة التقليدية القائمة على نقل البضائع والمنتجات المادية نح وتجارة المعلومة القائمة على نقل المنتجات الافتراضية واللامادية ⁽³⁾، ومن هنا فإن الربح سيحصل بلا جهد ولا مشقة، والربح بلا عمل يعتبر من مصادر الأزمة.

⁽¹⁾ جيل لبيوفيتسكي، جان سيرو، مرجع سابق، ص 43

⁽²⁾ للمسيري عبد الوهاب، دراسات معرفية في الحداثة الغربية، ط1، القاهرة مصر، مكتبة الشروق، 2006، ص 260، 261

⁽³⁾ على حرب، أزمة الحداثة الفائقة، الإصلاح - الإرهاب - الشراكة ط 1، الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي، 2005، ص 201

د- الخطاب الحدائي الفارغ من القيم:

إلى جانب التصدعات التي أحدثتها الحداثة في مجال القيم والإعلام، لم تسلم اللغة ولا الخطاب من تفريغ معناه ومحتواه وفك ارتباطاته القيمية، ولم يعد للكلمة دور في التعبير على أخلاقيات التواصل والتحدث، وقد تم تخلية اللغة من العبارات ذات معنى قيمي. فاللغة ليست وسيلة للتواصل أو أشكالا للتعبير إنها " تحيا وتؤثر إيجابا في المستمع إذا كانت مشحونة بالقيم، وتنحصر أو تصبح غير فاعلة أو أداة محايدة إذا خلت وتم إفراغها جزئيا من هذا المضمون على النح والذي يلاحظ حديثا في لغة المحادثة اليومية والإعلام "(1).

لقد أدركت الحداثة في المجال الإعلامي خطورة القول لذا أولت له اهتماما أكثر من الفعل، حينما قامت بفصله وتجريده من القيم الفاعلة في تشكيل اللغة، إلى لغة شاردة عن تحمل معاني ومضامين قيمية، ولا أدل على ذلك ما يحدث " على مرائينا ومسامعنا من طوفان الأقوال، طوفان تُغطي هَوَلَه وتُخفي فداحته أسماء مختلفة تُعري بظواهر دلالتها من نحو (انفجار المعلومات) وثورة الإتصال وانعتاق الكلمة وسيادة القلم وسلطان العقل وتداول المعرفة وعولمة الإعلام وغيرها من الأسماء الكثيرة التي يروج لها الطوفان اللفظي وتجلب له مظاهر الموضوعية والمشروعية بغير حساب، حتى إن أنسب إسم يصح إطلاقه على حضارة الغرب الحديثة التي أنتجت هذا الطوفان هو أنها حضارة القول "(2).

الملاحظ أن عملية انفصال طالت أيضا قواعد اللغة، فإذا كانت اللغة لا تبنى إلا وفق قواعد يجب مراعاتها، فإن هذه القواعد لم تسلم من نقضها، واستبدلت كثير من الكلمات باللغة العامية، وانتشر العنف اللغوي وأصبحت اللغة تابعة للكلام وليس العكس "فالعنف اللساني يتحول في هذه الحالة إلى ظاهرة اجتماعية، وفي غياب المرجعية اللغوية، أي بنيتها القيمية والنحوية، قد يصبح التأثير عكسيا فتتأثر اللغة بالكلام وليس العكس، وليس المقصود التأثير بالألفاظ والأصوات فحسب ولكن بالمعاني السلبية كالعنف اللساني مثلا، وقد امتد الكلام إلى مختلف مجالات الحياة في ظل تراجع النظام الثقافي والتعليمي، وازدهار الثقافة الاستهلاكية والترفيه، يدخل في ذلك استخدام الكلام الدارج في وسائل الإعلام وخاصة المسموعة والمرئية "(3).

(1) عبد الرحمان عزي، الإعلام وتفكك البنيات القيمية في المنطقة العربية، قراءة معرفية في الرواسب الثقافية، تونس، الدار المتوسطية للنشر، 2009، 76

(2) عبد الرحمان طه، سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، ط1، دار البيضاء المغرب، المركز الثقافي العربي، 2000، مرجع سابق، ص 77

(3) عبد الرحمان عزي، مرجع سابق، ص 86

كل هذه الخطابات التي توجه للمتلقين عبر وسائل الإعلام؛ قوّضت كل ما من شأنه أن يحتوي على قيم، وحولتهم إلى أفراد يحيون في واقع غير واقعهم، ويعيشون الاغتراب؛ فلا مجال لواقع تحيا فيه الكلمة وتعبر عن أفقها القيمي الذي كان في البدء، حيث يكون (الصدق والقصد)⁽¹⁾ مدارا وفلكا يترقى فيه الخطاب ويعبر على شأن القيم في اللغة.

- تزييف المعاني والمسميات وثقافة اللامعنى: 2-

إن المأل الحقيقي لطبيعة الرؤية إلى العالم حسب ما اقتضته الحداثة الغربية، هو بروز آثار تلك الرؤية وتجلياتها الخطيرة في تلاشي المعنى من الحياة، وفقدان المعنى يقصد به عدم وجود إمكانية للقبض على الحقيقة، وحالة من الضبابية والتهيه وفقدان للرشد والبوصلة النازمة للوجود الإنساني. ذلك إذا أمكننا تحديد المفهوم الحقيقي للإنسان بأنه كائن معنوي، باعتبار أن المعنى فصل نوعي؛ الذي يحدد إنسانية الإنسان، وعبر (غارودي) على ذلك القلق، كنتيجة لأزمة الحداثة: "هكذا ولد ما يسميه جيل ليبوفتسكي G. Lipovetsky) عصر الفراغ، لكن هذه الجريمة لاتقع على الشعب بل على مؤسساته وقادته"⁽²⁾.

هذا الفراغ الذي وصلت إليه الحضارة الغربية، بعد أن شكلتها تلك الرؤى الحداثية التي استبعدت أسئلة المعنى من الحياة، فأسئلة البدايات والنهايات لم تبحث في فالنسق الحداثي، فضلا على اعتبارها أسئلة ميتافيزيكية ليس من شأن العلم البحث فيها، وليست غايات مهة بالنسبة للإنسان، لأنها بحث في الماضي ووظيفة الإنسان المعاصر تأمين مستقبله. وفي الحقيقة تلك الأسئلة هي الجوهر المكون للإنسانية، الذي لم ينفك عن الإنسان منذ بداية وجوده على ظهر هذه البسيطة، وهي كما يقول (لوك فيري): "أن نحيا جيّدا ونضفي معنى على وجودنا ونحدد فيم تتمثل حياة طيبة بالنسبة إلينا نحن البشر الفانين، تلك هي المسألة التي حاولت الإجابة عنها كل الفلسفات"⁽³⁾.

هذه الأسئلة أيضا كانت محط اهتمام الإنسان على اختلاف تصوراته حول العالم، سواء الرؤى المؤمنة أو غير المؤلهة. إن "هذا التساؤل حول الأهداف النهائية منذ بداية الإنسانية من عمل الأديان، التي جاءت لتلبي حاجة أساسية للبشر، ليس للحيوانات الموجهة بغرائزها الثابتة أن تطرح مشكلة النهايات والمعاني. ولد مع الإنسان- الحداثي- الشك حول المستقبل، معنى الحياة، الموت وما بعد الموت"⁽⁴⁾.

(1) طه عبد الرحمان، اللسان والميزان والتكوتر العقلي، ط1، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1998، ص 249، 250.

(2) مصدر نفسه، ص 82.

(3) لوك فيري، أجمل قصة في تاريخ الفلسفة، ترجمة محمود بن جماعة، ط1، تونس، دار التنوير، 2015، ص 21.

(4) غارودي روجيه، حفر والقبور، الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها، ترجمة عزة صبحي، ط3، القاهرة مصر، دار الشروق، 2002، ص 90.

إن الإستراتيجية التي اعتمدتها الحداثة من خلال التغيير والتلاعب بالمعاني وحصر المعنى في بعد واحد. كل ذلك أدى إلى فوضى المعنى، فما كانت لتصل وحدها إلى غاية نهائية؛ "فمن نتيجة إلى نتيجة ومن غرض إلى غرض؛ ما كانت لتصل وحدها إلى غاية نهائية أو غرض نهائي"⁽¹⁾. وإذا كانت الأفكار لا تنتقل إلا عبر ذلك الكائن الخطير، والذي يعني اللغة، وعبر جهاز المصطلحات، "فكان من المفترض أن تكون اللغة⁽²⁾ هي نظام الأنظمة، هي المجهول الذي يجب أن يعرف، لكن المنتجات المتداولة تقلب الافتراض هذا، فتجعل نظاما واحدا للإنتاج يصبح نظام الأنظمة كلها... وأنها ليست برنامجا معلوما في كون هائل للبرنامج المجهول غير المحدود"⁽³⁾.

فقد كانت استراتيجية الحداثة هو القبض على تلك المعاني وتحويلها، بما يوافق نسقها المعرفي ولرؤيتها إلى العالم، من خلال إقامة جهاز اصطلاحى يخدم بنيتها الفلسفية. حيث إن المعاني الكبرى أخذت تتشكل في قوالب معنوية لم تعرف من قبل، "حتى إن معاني الكلمات ذاتها أخذت تتعرض للتحريف، ويستمر أولئك بتسمية التطور المسار الأعمى، الذي يقود نح ودمار الطبيعة والإنسان في آن واحد"⁽⁴⁾. ويعتبر (جاوردي) أن مهمة المثقف هي الكشف عن تلك التحريفات للغة الكاذبة، تلك الإستراتيجية التي اتخذتها الحداثة لتحافظ على ذاتها، والتي قادت العالم إلى فوضى والحياة بلا معنى، حيث يقول: "إن مهمة المثقفين الأولى هي كشف القناع عن اللغة الكاذبة في الكتب المدرسية، ووسائل الإعلام التي يستخدمها الغرب ليحافظ على هيمنته بواسطة الأيديولوجيات الخادعة بحداثتها"⁽⁵⁾.
فقد كانت قوة تلك الإستراتيجية تقوم على أساسين وهما تواليا:

⁽¹⁾ غارودي روجيه، كشف حساب الفلسفة الغربية، ترجمة أوبكر الفيتوري، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، (دط)، طرابلس ليبيا، عدد 7، 1990، ص 634، ص 634.

⁽²⁾ "وللغة أهمية كبيرة في فهم الثقافة، وذلك لأن أي نظام لغوي تعبير عن نظام إدراك جماعة من الجماعات لبيئتها ولنفسها، ولذلك لا يستطيع الباحث أن يفهم حضارة ما حق الفهم إذا كان يجهل وسيلتها في التعبير" عبد الوهاب المسيري، فتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، مرجع سابق، ص 360

⁽³⁾ مطاع الصفدي، استراتيجية التسمية، في نظام الأنظمة المعرفية، ط 1، بيروت لبنان، مركز الإنماء القومي، 1986، ص 7.

⁽⁴⁾ روجيه غارودي، هذه وصيتي للقرن 21: حوارات مع وقائع جلسات محاكمة روجيه غارودي، حاوره شاعر نوري، ط 1، بيروت لبنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2007، ص 95.

⁽⁵⁾ غارودي روجيه، الولايات المتحدة الأمريكية طليعة الانحطاط، ترجمة صياح الجيهم، ميشيل خوري، ط 2، بيروت لبنان، دار عطية للنشر، ص 120.

لأستراتيجية وسائل الإعلام واللامعنى:

تلعب وسائل الإعلام دوراً مهماً في صناعة وتشكيل وعي الإنسان، خاصة بعد أن غدا العالم قرية واحدة، حيث يصبح - الإعلام - هو النافذة الوحيدة التي منها يطل الفرد على العالم، ويفهم جميع تشكيلاته الثقافية والسياسية والاقتصادية، وليبيان أهمية وسائل الإعلام في صناعة الثقافة في العالم يرصد (غارودي) ويتتبع تلك الممارسة من خلال كشف ساعات البث التلفزيوني الأمريكي⁽¹⁾ في أوروبا، فقد كانت هذه الأخيرة "ترزح تحت غز والأفلام الأمريكية والتلفاز الأمريكي، فمن أصل 250000 ساعة بث تلفازي في أوروبا لا تنتج مجموعة (الإنترنت عشر) دولة أوروبية إلا 25000 ساعة أي 1/10 من ساعات البث، أما نصيب السينما الفرنسية من السوق في الولايات المتحدة فهـ و0.5 بالمائة... في غسل أدمغة شعب بتأثير ريشيات (ترميناتور) أ و (جيمس بوند) وأمثالهما من أبطال هوليوود، وعناد الدولارات الأمريكية"⁽²⁾.

أما المهمة الأخرى للإعلام فهي خلق الوعي السياسي والاقتصادي. فقد أصبح "الإعلام سوقاً ضخمة، أكثر اتساعاً أيضاً من سوق الصناعة والمال، وهوما أسماه الآن كوتا (الرأسمالية الإعلامية). .. فالحقيقة سلعة تباع وتشتري، ويتم تكييفها طبقاً للهدف المطلوب، يعتمد الإعلام من الآن فصاعداً على دعم الإعلان، الذي يتحكم في تمويل البرامج واختيار مقدميها"⁽³⁾.

⁽¹⁾ يمكن أن نعتبر الولايات المتحدة الأمريكية إمبراطورية الإعلام، فهي التي تسيطر على الساحة الإعلامية الدولية، على إختلاف أصنافها وأشكالها وتنوعاتها فهي "أكبر دولة في مجال صناعة الإعلام، لأنها تمتلك أكبر المؤسسات الإعلامية في العالم، وهذه المؤسسات ذات مهنية وحرفية عالية، وتمتلك أصولاً مالية ضخمة جداً توازي مداخل بعض الدول النامية. ورغم وجود كيانات إعلامية كبرى في العالم خصوصاً في أوروبا، وتحديداً في بريطانيا وفرنسا، إلا أنها لا تجاري الكيانات العملاقة داخل الولايات المتحدة فصناعة الإعلام في أمريكا تُعد رافداً اقتصادياً كبيراً، وسلاحاً استراتيجياً تستخدمه في نشر ثقافتها وسياسيتها حول العالم، على اعتبار أن الإعلام الأمريكي هو الأكثر انتشاراً ونفوذاً في العالم، من خلال المحطات وطبعاً، ABC الإخبارية، والمحطات التي تُنتج أكثر المسلسلات رواجاً)، مثل الاستوديوهات السينمائية في هوليوود والتي تُنتج سنوياً مئات الأفلام يشاهدها مئات ملايين الأشخاص في العالم، والتي من خلالها تُروج الولايات المتحدة لسياستها ومنهجيتها" هوزوان الوز، الإعلام أدوار وإمبراطوريات، ط1، دمشق

سوريا، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب وزارة الثقافة، 2012، ص 144

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 88.

⁽³⁾ روجيه غارودي، حفار والقبور، مصدر سابق، ص 78.

إنه يمكن التعبير عليها بسوق الصورة التي تزيف الحقائق، وتخدع الأفراد وتلعب بمشاعرهم، وتوجيههم نحو وما يريده الساسة والشركات الإقتصادية الكبرى، " فبينما كان (بوش) يتمنى أن يسانده مواطنوه في عملية تدمير العراق... استخدمت وكالة للعلاقات العامة أنجع الحيل، الحيلة التي ستعبد أمريكا بأسرها: الموت المتعمد للمولودين الجدد الذي روته لاجئة شابة أفلتت بأعجوبة من أيدي الأفضاظ العراقيين... روت ذلك كله والدموع تنهمر من عينيها، هذه الدقائق القليلة من التلفزيون هزت نفوس الأمريكيين حتى إنهم طالبوا بالانتقام"⁽¹⁾.

إن كل ذلك بإحترافية لا مثيل لها، مع اختيار الإخراج وأسلوب العرض، حيث يقوم بذلك ثلة من الخبراء في الإعلام وفن التصوير وعلم النفس الإعلامي، " فالإخراج يخضع لقوانين السوق نفسها، وفي هذا الميدان، كان استغلال أدنى الغرائز (الغرائز القاعدية)، غرائز الدم والجنس هو القاعدة. فقد لاحظ (سقراط) أن الطفل لا يحار في الاختيار بين حلوى الحلواني ودوار الطبيب، لكن سادة العرض التلفزيوني لا يكتفون باعتبار مشاهديهم كأطفال"⁽²⁾.

إنه ل ورجعنا إلى الكواليس وبحثنا عن الشركات الإعلامية، من هم ملاك هذه الشركات لوجدنا أمثال "ماردوخ، ماكسويل، في فرنسا هيرسان، الإعلام هو سوق مثل سوق الأخرى، والحقائق تباع مثل المنتجات الأخرى، أيضا أكبر ثلاث وكالات غربية للصحافة، رويتر، أسوشيتد برس، فرانس برس، هي التي تفرز وتحدد للعالم كل ما يراه، وما لا يجب أن يراه، وبأي حجم وتركيز وتكرار"⁽³⁾، وهنا يطرح التساؤل التالي

" وقد صرطه عبد الرحمان لنماذج الوهم واستخدام للصورة في غير محلها وه وما سماه ب "إبدال الوهم بالحقيقة" وذلك عبر خطوات وكالاتي: " (1) تقديم الصورة على الخبر: أخذت الصورة المعروضة تستقل عن الخبر المنقول من جهة الفائدة والتأثير؛ ذلك أن الخبر لاتصاحبه دائما الصورة المناسبة له، فقد تُصاحبه صورة أخرى معلة من هذه الصورة المناسبة. (2) سلب الصورة لميزات الشيء المصور: أخذت الصورة تفقد دورها كوسيلة لتصبح مقصودة لذاتها، بل تفقد وصفها كعلامة دالة على غيرها؛ إذ اعتبرت قوتها نابعة، لا من تمثيلها للمصور، وإنما من تميزها في حد ذاتها. (3) تقديم الصورة على الشيء المصور: (المتفرج) يجنح إلى الإستغناء بالكائنات الافتراضية عن المصورات، وإنما كائنات لها من الحقيقة والفعالية ما للمصورات، فيجنح إلى الإستغناء بالكائنات الافتراضية عن المصورات الواقعية. . . وأشرب قلبه بها كأقوى ما يكون الشرب" طه عبد الرحمان، دين الحياء، مرجع سابق، ص 41، 42، 43

⁽¹⁾ غارودي روجيه، نح وحرب دينة جدل العصر، ترجمة صباح الجهم، ط 2، بيروت لبنان، دار عطية للطباعة والنشر والتوزيع،

1997، ص 76

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 77

⁽³⁾ روجيه غارودي، حفار والقبور، مصدر سابق، ص 78

لصالح من يعملون؟ إنها شركات تزيف الوعي وتصنع لنا عالما كما تريد أن نراه، وهوما يصطلح على تسميته بالرؤية الإعلامية للعالم

كل وسائل الإعلام هذه تركز لثقافة التنميط والإستهلاك، وتصدير ما يمكن أن نصطلح عليه ثقافة القطيع، من حيث جملة المضامين التي تعرضها شاشات التلفزيون. وعليه فإن الذي يسود " وسائل الإعلام عامة هو مضامين الإستهلاك والترفيه والدعاية السياسية رغم وجود مضامين جزئية دالة بعين الاعتبار تباین هذه الظاهرة بين محيط ثقافي وآخر وبين وسيلة وأخرى، وقد أدرج باحث والمدرسة النقدية مثلا محتويات وسائل الإعلام في إطار ما سمي بالثقافة الجماهيرية، التي تحمل قناعات الثقافة الصناعية وتروج عبر وسائل الإتصال الجماهيرية من أجل ترسيخ قيم امتثالية تنميطية وإستهلاكية والحفاظ على ديمومة النظام الإجتماعي"⁽¹⁾.

فقد أصبحت وسائل الإعلام مصدرا للتحريف وتزييف المعاني ونشر لثقافة اللامعنى؛ التي تخدم مصالح القوى الكبرى. بل غدت وسائل الإعلام مصدرا للكذب حيث يقول (غارودي): "لم أعد أثق في إعطاء أحاديث غير مباشرة خاصة لقنوات التلفزيون، ولذلك أشرت الحديث المباشر حتى لا يقع تحريف فيما أقوله كما حدث في مرات كثيرة... إن السياسيين في الوقت الحاضر يتهافتون على كسب ود اليهود لكسب رضا الإعلام، مع ان يهود فرنسا لا يمثلون سوى 2 بالمئة من السكان، لكن بالرغم من هزلة هذه النسبة، فإن الصهيونية تسيطر على جميع سياسات الإعلام الفرنسي بما في ذلك دور النشر والسينما"⁽²⁾.

بداستراتيجية تزيف المصطلحات والمعاني:

أما بالنسبة للإستراتيجية التي تقوم عليها الرؤية الحداثية في إفراغ المعاني من قواها القيمية، فإنها تعتمد على تزييف المعاني والمصطلحات؛ وجرى كل ذلك "الإستخدام للمصطلحات الجديدة لأحكام الخداع"⁽³⁾، ومزيها من الهيمنة والسيطرة على العالم، خاصة وأن الجهاز المفاهيمي والإصطلاحي هو المسلك الوحيدة، لصناعة الرأي العالمي، وتكوين رؤية للعالم.

⁽¹⁾ عبد الرحمان عزي، الإعلام وتفكك البنيات القيمية في المنطقة العربية ط1، تونس، دار للتوسطية لنشر، 2009، ص 187

⁽²⁾ روجيه غارودي، هذه وصيتي للقرن 21، مصدر سابق، ص 57

⁽³⁾ نعوم تشومسكي، النظام العالمي القديم والجديد، ترجمة عاطف معتمد عبد الحميد، ط1، مصر، نهضة مصر للطباعة والنشر،

مارس 2007، ص 345

فأي مقاومة للاحتلال الثقافي لا بد أن تقوم على أساس بناء المفاهيم والإصطلاحات، لأن هذه الأخيرة تحتوي على بنى مضمرة، وتسكنه جمهرة لا بأس بها من الإيديولوجيات "فمقاومة الاحتلال الثقافي - أ وعلى الأصح - المناهض للثقافة ينبغي أن تبدأ بتوضيح لفصح الإيديولوجية"⁽¹⁾.

ومن ثمة وجب الحرص على كشف لعبة التزييفات للمعاني والإصطلاحات التي تمارسها الرؤية الحداثية، لأنه من خلالها يتم نشر ثقافة تساهم بشكل أ وبآخر في بناء وتحديد موقفنا من العالم، وتجاه القضايا الفكرية والسياسية والإنسانية والإقتصادية. وقد حاول (غارودي) أن يكشف تلك الممارسة من خلال نقد بعض المصطلحات والمفاهيم التي غيرت عن معناها لأجل غايات مضمرة أو صريحة.

وقد جرى كل ذلك بوعي وقصد تام، من أجل الوصول إلى تحقيق موارب تلك الرؤية، يمكن إطلاق اسم تلك الممارسة بإستراتيجية تحسين التسمية؛ لأجل تغطية الممارسات اللا أخلاقية، فمثلا "ما يسمى علم الأخلاق الحديثة هو سلوك إباحي، لم يتساءل أبدا حول المعنى الذي تحمله الضوابط قبل رفضها، لاتقع مثل هذه الأخلاق فيما وراء الخير والشر، لكن من جانبه"⁽²⁾. والأخلاق بهذا المعنى هو ما نجده عند (ميشال فوكو)، فيما يسميه إيتيكا الوجود الجميل، وهي "أن ينغلق الفرد عن ذاته أن يفعل ما يشاء لتصبح أخلاقه ترفا جماليا"⁽³⁾.

وإن ما يطلق على تسميته "المجتمع الحديث هوديمقراطية غربية، تكون قوانين السوق والنم وهي المنظم الوحيد في داخلها"⁽⁴⁾. وهذا خلاف المجتمعات الأخرى حيث "إن المجتمعات المتخلفة لا تزال أسيرة المرحلة الأولى، مرحلة المجتمع التقليدي... على عكس الدول الغربية وخاصة الأنجلو- سكسونية، التي اجتازت مراحل متطورة على طريق النم والإقتصادي وأضحت تعبر بوضوح عن مفهوم التنمية السياسية، بمعنى أنها نجحت في تطوير أشكال مستحدثة معقدة من نظم الحكم والسياسة"⁽⁵⁾.

فالغرب أيضا يطلق مثلا تسمية "العولمة، ليس على الحركة، من خلال مساهمة جميع الثقافات، التي تقود إلى الوحدة المتناسقة للعالم، ولكن إلى الضد من ذلك، أي إلى تقسيم التنمية، بين الشمال والجنوب، الناتجة

⁽¹⁾ روجيه غارودي، نح وحرب دينية، مصدر سابق، ص 79

⁽²⁾ روجيه غارودي، حفر والقبور، مصدر سابق، ص 105

⁽³⁾ ميشال فوكو، استعمال الذات، ترجمة جورج أبي صالح، بيروت لبنان، دار الإنماء القومي، دط، ص 25 بتصرف

⁽⁴⁾ روجيه غارودي، مصدر سابق، ص 106

⁽⁵⁾ جلال عبد الله معوض، المادية الأمريكية وعلاقة للتغير الإقتصادي بالتطور السياسي، ضمن إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للإجتهااد، ط2، هيرندن، فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية، ج2، 1997، ص 146.

عن إمبريالية متوحشة من شأنها أن تحطم تنوع الحضارات وما تحمله من رموز، من أجل فرض هيمنة على الكون"⁽¹⁾.

والعولمة لم تكن أبداً عالمية لتتناسق وتتزاوج فيها الثقافات العالمية. بل كرس ثقافة واحدة وأنموذجاً واحداً هو الأمركة الإمبريالية. وهو ما عبر عنه حقيقة (هانس بترمارتن) بأنها "حرب العصابات في غابات المال، في أسواق المال، على أقل تقدير، تعني العولمة، حتى الآن أمركة العالم إلى حد ما"⁽²⁾.

وتستمر لعبة تزييف المعاني مع الحداثة الغربية، حيث تم تعديل المصطلحات على مستوى السياسة العالمية خاصة فيما يتعلق بقهر الشعوب الضعيفة التي تدافع على نفسها، وسلبيها كل الوسائل المشروعة للدفاع على نفسها وهكذا "يكتسب كل غز وأعدوان استعماري شرعيته باسم الحضارة، أما مقاومة الشعوب المستعمرة، والمغتصبة والمقتولة فيسمى إرهاباً"⁽³⁾. حيث انتقد هذا التصور طائفة من المفكرين الغربيين مثل (نعوم تشومسكي) حيث يقول: "وصار لمصطلح معتدل ومتطرف أبعاد جديدة، فالمعتدل هو الذي يوافق على خطط واشنطن والمتطرف هو ذلك الذي لديه وجهة نظر مخالفة، ويمكن أن يسمى المعتدل براجماتياً ويسمى المتطرف راديكالي أو صاحب مواقف صلبة، وفي حال الصراع العربي الإسرائيلي فإن المعتدلين هم أولئك الذين يوافقون واشنطن في استبعاد الأطراف الخارجية"⁽⁴⁾.

وهكذا غدا العالم فارغاً من المعنى في ظل تلك التصورات التي لم تعلن عن الحقيقة، إلا من خلال البحث عن الرغبات المتجددة للإنسان. والتي لا تكاد أن تضمحل لتجدد معها مفهوم المعنى الذي يضل يرتحل حسب رغبات الإنسان وأهوائه ولا يقر له قرار "حتى المعنى يتحول إلى مصطلح مشكوك فيه... فهذا المصطلح يفترض أن شيئاً واحداً يمكن أن يتمثل أو يرمز لآخر، وهو افتراض يجده البعض بالياً"⁽⁵⁾، فلا يمكن أن يتحقق التواصل الإنساني إذا غابت المعاني عن الحياة، وأصبحت تشكل حالة مأزومة خاصة إذا تم نقلها وتحريفها عما وضعت له، وهذا هو المعنى الأصيل لوجود ما قد نسميه فوضى العالم.

⁽¹⁾ روجيه غارودي، هذه وصيتي للقرن 21، مصدر سابق، ص 95

⁽²⁾ بترمارتن-هانس - هارالد شومان، فخ العولمة، ترجمة: د. عدنان عباس علي، (دط)، الكويت سلسلة عالم المعرفة، عدد 238، أكتوبر 1998، ص 126

⁽³⁾ غارودي روجيه، كيف نصنع المستقبل، ترجمة منى طلبة وانور مغيث، ط3، القاهرة مصر، دار الشروق، 2002، ص 186

⁽⁴⁾ نعوم تشومسكي، النظام العالمي الجديد، مرجع سابق، ص 345

⁽⁵⁾ تيري إيجلتون، معنى الحياة، ترجمة شيماء طه الريدي، ط 1، القاهرة مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2014، ص 25

خاتمة:

لقد ساهمت التصورات الحداثية في العمل على استراتيجية تغيير المفهوم وتزييف المفاهيم والمصطلحات، وأصبحت خالية من المعنى والقيمة، خاصة عن طريق الإعلام والذي استعمل لتزييف الوعي. ومن ثم فقد الإعلام معناه في العالم ولم يعد صوتاً للمقهورين ولا يظهر الحقائق كما هي عليه في الواقع، بل غدى خالياً من أي معنى في زمن العولمة والتقنية التي لم تتكرر مجالا إلا وتواجدت فيه، كما أثر ذلك سلباً على التربية الإعلامية التي كان لابد لها تكون ترشد الوعي الإنساني ولتحقيق ثقافة التواصل والاعتراف بالآخر. إنها تركز لثقافة القوة والصراع خاصة من خلال الأفلام السينمائية والرسوم المتحركة، فيؤثر سلباً على البنية الوجدانية في تربية الطفل كما يقول عبد الوهاب المسيري: "ولا يختلف هذا المسمى (توم وجيري)، الذي يصوغ وجدان أطفالنا كل صباح، حيث يقوم الفأر اللذيذ الماكر باستخدام كل الحيل التي لا يمكن الحكم عليها أخلاقياً، فهي لذيذة وذكية وناجحة للقضاء على خصمه القط الغبي ثقيل الظل، ولنلاحظ أن القيم المستخدمة هنا قيم نسبية ونفسية وظيفية برجماتية، لا علاقة بالخير أو الشر - قيم تشير إلى نفسها وحسب، ولا تفرق بين الظاهر والباطن. كما الصراع بين اثنين لا ينتهي، يبدأ ببداية الفيلم ولا ينتهي بنهايته، فالعالم حسب رؤية هذا الكارتون كامنة إن هو إلا غابة داروينية مليئة بالذئاب التي تلبس ثياب القط والفأر: توم وجيري"¹.

كل هذا ساهم في تشكيل الوعي وثقافة الصراع وخلق الأنانية المفطرة مما أثر سلباً على تربية أطفالنا، وهو ما نشهده من تركيبة جيل الجديد الذي نشهده، فهل جيل يفتقر إلى القيم والتربية، ساهمت الواشئل الإعلامية في تكون وعييه، هذا ما يدفعنا إلى إعادة بناء إعلام وظيفي هادف يحمل قيم إنسانية بعيدة عن كل أشكال الثقافات العنيفة التي لا تحترم المعاني في الإنسان.

¹ عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، مصر القاهرة، ط1، دار الشروق، 1998، ص 260